

نهاية الزمن العاشر



(بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لإنفاضة الحجارة)

دواة

مضى عقدان من الزمن وبطنها قاحل . تناثرت الاقاويل وكثير التساؤل . صارت في الحلق غصة ، في جمال الحياة كدر ، في صفاء الجو غيوم ، في هدوء البال توتر ، في نظرات الناس حدة . وهيب زوجها .. يعود من عمله ولا يبخل على زوجته ، يراوده الأمل . كل عسر يلية يسر ، لطفك يا ملطف ، الثمر يمتنع ، النوار لا بيان ، العود اجرد .

يتهلل بحرارة لمن في يده الحل والربط . يتعامل مع ضغط الأيام ، يهرب من ضغط الألسن . ما بقي صاحب ضريح الا ووصلته حصته . عدل في الزكاة وزاد . لف على الوسطاء والمشعوذين . . حتى كاد يطبق من التجوال .

قالوا انها مصابة بالعين . سلسلوا الحكاية من وقت تعارفهم فوجدوا الف سبب ، ما نفعت الحجب في هزم اي سبب . أخذها عند احسن الشياخات بعد عجز الأطباء الواضح K ما بفي طقس بلا تجريب . بشروه بالخير وبقي العسر ماسك .

احتارت نفسه ، اجتنب الناس ابتعدا عن تساؤلتهم . عيونهم فيها غمز .. تساؤلاتهم تفجر غضبه . يسرك يا رب .. هل يطلق من داخ في حبها ؟! ايتخل عن مات صباة في القرب منها ؟! أيبتعد عن التي يسرح وجدا نه كلما قربها لنفسه ؟! عشرون سنة من الاندماج الحسي والذوبان العاطفي تنتهي بكلمة غبية ؟! آه من غدر الايام وخيانة القلوب .. آه من شطحات العقل .

عشرون سنة من اندماج الذاتين في ذات واحدة. يرفض التشاوم ، يقاوم سوداويته ، ينتظر البشاره بصبر ، يلتزم بأمله ، ينادي احلامه ، يواسى نفسه بالصبر وينتظر الخبر الممتنع ... يترصد الحلم الذي لا يجيء .

قالوا : " الصبر ثم الصبر " فاحتار ، حتى متى الصبر ؟! " الصبر سلاح المؤمن المتيقن ! " اما الايمان فالحمد ، لكن اليقين معدوم .. والاحساس بالخساره مرير .

تتوالى الأيام ، تتناثر الآمال ، يتواتي الحديث ، تتلى الحكايات ، يتجدد الأمل ، يتبدد الأمل ، يتعلق بحال الامنيات ، ينال منه اليأس ، يوغل في الأمل ، يتحلى بالصبر ، ينهزم اليأس... هذه طبيعة النفس البشرية ، متربدة ، متقلبة ولكنها على العموم تتفاعل بالخير ، تطفح بالامل وهي في ذروة العسر والامتناع .

كان محتررا في نصيبيه ، يحاول ان يفهم الحكمه في قدره ، يقوى يقينه ان يكون فرج بعد شدة ، فرح بعد صبر ، طفل بعد انتظار ، لا بأس بطفلة ...

عقدان كاملا لا يعرف كيف عبرهما . عشرون طويلا بأيامها .. حتى الصبر صار علقتا . ثبت في طريق الأمل ولا يزال . كانت تشعر برغبة زوجها ، يسود عالمها من عجزها البين في تطبيب خاطره . كان حبيب نفسها يحزنها صمته .. وكثيرا ما رجته ان يطلقها ، او ان يأخذ عليها زوجة اخرى تحقق له ما تصبو اليه نفسه .. تعطية من بذره ثمرة .

رفض كلامها وزجرها . ابدي لها من العشق ما حيرها في امرها وزاد من شعورها بالنقص والتقصير . لم يوفر جهدا في اظهار حبه ، كان يطمئنها بحنانه الطافح ، ترتاح لعواطفه الجياشة ، يمنحها من عناده بصمت وصبر، مدد ازرها ويجدد الأمل في نفسها .

عناد

قالوا انها مروعه ، مدد من الرعب . فاحتار في الصلة بين ارتعابها وعقرها ، هل يبقى الرعب قائما عشرين حول ؟ قالوا لا يحل رعبها الا امر بيد الخالق .. فاحتار في تأويل شكل الامر ؟ متى يحين وقته ؟هل يحل لطفه ؟هل سينتظر فوق العشرين سنة ؟ الزمن يهرب من بين يديه والمرأه حين يتقدم بها العمر تصبح كالارض الصحراوية ، زرعها لا يؤتي ثمرا .. والسماد كالزبد يذهب جفاء . فكره مشغول بها كل نهاره ، تعذبه المعضلة ، يضئيه الأمل ، لا يرى حياته بدونها ، يرتاح لحبها

ووجودها بقربه ، ينفر من دنياه اذا ابتعدت بالخيال عنه ، يرتعب من احلامه اذا خلت من طلعتها ، تتسامي ذاته بقربها ، يتجدد عزمه بعناقها . كانت تحمل له من المشاعر على الاقل مثلما يحمل . تبتهل لربها ان يبعد بفجات الأقدار ، ان يطيب خاطر رحلها بعد صبره الطويل ، تنؤ بشقل عجزها ، ما هي خطيبتها ؟ تتعامل مع الواقع بنفور ، تهرب من الناس ، تسر لكل طفل تراه وتبكي حظها بحرقة .

ظهور البلية

تزوجا قبل دخول الاحتلال بليلة واحدة ، فحلت دخلتهما مع دخلته ، حاذت نكستهما نكسة عربهم . قضيا اسبوعا قاسيا ، تشردا في الخلاء هربا من القتال الذي حاذى قريتهم . البيانات المذاعة اوصلتهما لوطنهما السليم ، حقيقة ما جرى اذلهما ، شملتهما الصدمة ، اغرقهما العار ، اهاجت الذكريات رعبهما ، هو ايضا ارتعب ، البلد كلها ارتعبت ، مدد من الخوف والرعب ، طوفان من العار ، تناثرت احلامهما ، انقلبت موازين الواقع وحدوده وتأه الادرك . اعتراهما اليأس ، واجها واقعهما اشيه بالصائين ، توجسا من طواهر الاشياء وحذرا بوطنها ...

مرت الايام ، بدا الناس يعتادون على الواقع الغريب ... استحوذت عليهم مشكلتهما ، ولت العشرون سنة ، يصعب عليه تصديق ذلك . عشرون عاما ؟!كيف مر بفترة من الزمن ؟! فقط بالأمس جرت المعركة هنا بمحاذاة القرية ، قبل ذلك باسبوع كان يلاحقها بشوارع القرية وحاراتها ويبيث لها لواقع عشقه وغرامه . لا يزال يشعر برعشة الحب الاولى ، بتوتر العناق الاول . عشرون عاما لم يفكر بما يحيطه عداتها ، لم يقف على شواهد الأحداث ، يتأمل ما عاناه من وحشة ، يتذكر صبره الطويل الممتد حتى الساعة ، يكره تلك الأيام ، حتى لو لم تكن السبب في معاناته . برأسه هدف لا يمل من السعي نحوه ، لا يفرط بحبه ، يواسى المها الواضح ، يحنو عليها ، ينسيها قساوة القدر ، عباء المعاناة وجهد الصبر .

دخل

- انت حبي ، انت عالمي .. بدونك اذوى .

كان لا يمل من بث لوعجه ، لم يخدعها بحقيقة مشاعره ، حبه لها اصيل ، طلالها مطبوعة في نفسه ، رحيقها يسري في دمه سلسليا وامنيته بطفل من صلبه تتلاشى حين يحتضنها . هي تضطرب وكأنها المرة الاولى ، تصمت مصغية الى دبيب انفاسه ، حيرتها تعذبها ، عجزها عن تحقيق امنيته يشعرها بالخذلان ، يتفجر الدم من مقلتيها ولا تنسى نفسها الا حين يلتج جسده بجسدها ، فتتصل لقمة نشوطها ، ترجوه ان يأخذ عليها من تستطيع تحقيق امنيته فيردها خائبة :

- تطلبين البعـد وانت في قمة القرب ؟

- أشعر بالخيبة والقصور .

- ما عليك ، الموضوع يخصني فلا تلجمي .

- ويخصني .

احتضنها بقوة ، ضغط عظامها بين ذراعيه ، ضغطت بأسنانها على شفتيها متحملة لذة الاحتضان وهمس باذنها :

- حبي لك هو الجذور ، انا احبك لنفسك ، لذاتك ، أحببتك لأنك انت ، لا تخلطي بين مشكلة الحبل وحبنا ، حبنا قدس الاقداس فهمت ؟

شهقت والتفت اليه بدمع ملء وجهها :

- اكره نفسي لعجزي ، اريد ان اعطيك شرف الابوة ، الرجلة تكتمل بالابوة .
أصمتها بقبلة وهمس باذنها :

- انت دنياي ولا يهمني بعدك شيء .. لا الرجلة ولا الابوة ..

فتحت فمها لتقول شيئا فزجرها :

- اصمتني ولا تعكري ليلىتي .

سطوع الأمل

يرنو اليها خلال تجوالهم بين العيادات ، يرى تنامي قنوطها واكتمال تصميمها . يحاول ان يرى حياته بدونها فيعصره الالم . تتسرب الشفقة الى نفسه ، يود لو يحتويها بذراعيه ، خوفا من فقدانها ولو بالتأمل .

صرف كل ما طالته يده من ثروة ، كان الكلام يبعث الأمل ، يجدد الحواجز والواقع الملموس يبدد ما يتجدد من امل .

ما دام هناك بصيص من نور في كلام الأطباء فالتعلق واجب . حلاوة الكلام تطرأ ، شرحوا لها امورا لم يدركها كنهها ، لم يفقها مضمونها انما بهرهما اطارها . تلاشى التشاوؤم وبدأت دغدغة الأمل من جديد . للحق نقول ان وهيب ما زال حائرا بين حلاوة الكلام وصعوبة التصديق، اعتاد على الفشل .عشرون عاما من المحاولات ، عشرون عاما من الأمل المتجدد والفشل المتكرر . لكنهم اليوم يتحدون عن مشكلة معروفة علميا وطريق مجربة وأمل كبير ، النفس طافحة بالرغبات والحياة بلا أمل مستحيلة . لم يخبرهما احد ان العجيبة ستحدث .. تلك كانت ايام المسيح وقد ولت ، قالوا نجرب نحن متأكدون من النجاح . عاد الأمل ينبع بقوة ، تجدد الشباب .

الانسان موضوع محير ، عشرون عاما من التعرّف وراء الآمال تلاشت بعد سماع كلمة حلوة مبشرة، رب يسر ولا تعسر ، اعطانا من لدنك قوة ، لا تزع قلوبنا ، هبنا من رحمتك وصبرك ، رب تعم بخير .

ترى ما يدفع الانسان للأخذ بالتفاؤل والدلائل تعطي النقيض ؟ الأمل الجديد شحنه طاقة ، مده بالصبر ، حرك احلاما قديمة ، هاجت نفسه بلواعج الحب وماجت بالحنان .

أيجوز ان يكون لقيام الساعة ليلة دخلتهم ، سبب لما هما فيه ؟

كان يرتب اجوبة الفحص الاخير مشدود الاعصاب ، محاولا التمسك بهدوءه النفسي ، متقطعا الا يشعر زوجته بمقدمته فيما لو ظهرت النتائج سلبية . كانت هي الأخرى تنتظر النتيجة وكأنها قرار المصير ، الاعدام او الحياة . اعما بها متواترة مشدودة ، تحبس دموعها عنوة ... تمنى ان يتجمد الوقت بحيث لا تحل ساعة الصفر ، تعاني من ثقل الدقائق ويتضخم الوقت في مشاعرها ، تهرب نظراتها من نظرات زوجها ، تعرف ما يعتمل بنفسه ولا يخدعها المظاهر . منذ دخل الاحتلال في ليلة دخلتهم وهي تعيش هواجسها ومخاوفها ، تصارع مصيبتها ، ترزع تحت ارzaء عجزها ، تلوك الألسن سيرة جفافها ، لا تعرف ما الصلة بين عقرها وبين الاحتلال ، لا شك طالع نحس . سرقتها هواجسها من الزمن ومدت بها بعيدا ولم تنتبه على نفسها الا وزوجها يضمها كالمحجون صارخا :

- المعجزة !!

اول الغيث قطرة

حامل ... لهذه الكلمة اكثر من معنى ولها اكثر من نتيجة ، تشمل اكثر من افق ، تتسع لعالم كامل متكملا من المشاعر والرغبات والاحلام والانبعاث والتجدد ، هذه الكلمة قلب كل نظام حياتها ، أعطت عالمها رونقا جديدا ، ربما لأول مرة تضحك على راحتها وليس مจำلة . لأول مرة ت سابق جاراتها لالقاء تحية الصباح ودعوتهن لفنجان قهوة الصبح . بدأت تلمس انها تعيش في عالم مليء بالقيم والعلاقات ، اين تاهت كل هذه السنين ؟ كيف لم تشعر بما يدور حولها ؟ هل حقا ما زال الاحتلال قائما ؟ لا تعرف لماذا ارتبط الاحتلال بما مر عليها . أسباب المعاناة الخاصة التي جاءتها بعد الاحتلال ؟ كم يؤلمها سقوط الضحايا من الطلاب والطالبات ، قد يكون الدم النازف دم ابنها ، قد يكون دمها نفسها ، ترتبك سعادتها ، تخاف على جنينها ، يقلقها مستقبله . متى يتغير هذا العالم ؟ متى يتجدد ؟ كانت الحركة تزداد في احشائها . الفحوصات الطبية تؤكد ان الجنين يتتطور بشكل ممتاز . بهرها ضوء ساطع . هزتها السعادة وزغردت فرحا ومن وجنتيها سطع الق الرضاء . اعطنا من يسرك خيرا ، بشرنا بالغيث وخذ عنا الغرباء ومدنا بلطفك ، مدد من خيرك ، ادحر الآثمين القاتلين ، قو سواعد شبابنا ، قو يقينهم ، مد لهم العون في وقت الشدة والأزر في وقت الضيق ، نور دربهم ، صوب خطتهم واسملهم بعطفك في هذا الزمن الخائن .

منذ اسبوع ولجت شهرها . اصبحت السعادة قرينة الغد . تعجلتها . احتارت كيف تكون مشاعرها يوم استقبال طفلها . واضطررت لما تسمعه من احداث وحشية . هزها القتل المتمعم .

زوجها الزمها البيت خوفا من حادث طارئ بعد انتظار مثير ، حديث الجارات يثير الرعشة والحماس ، هل كانت تزجر طفلها لو انضم مع اترابه في تحدي العساكر ؟ تناقض صريح وهو جس محيرة . أمس انفجرت الاحداث قرب حارتهم ، كانت تتعجل الأيام خوفا من مكروه يفقدها صبر عشرين سنة . هل تستطيع ان تواصل الحياة اذا حدث ما يفقدها كنزها ؟

زوجها منذ اسبوعين لا يخرج للعمل ، احاديث كثيرة يتداولها الرجال ، الحركة حولها تتدفق والحرارة تتفجر ، الحماس يتلاقي مع الانفعال وهي كالمحتفى بهم ، مكرمة مدللة مسترحة . احيانا يراودها تمرد لما يطولها من دلال ومن راحة ، لكنها تخاف حقا على حملها الثمين . الأحاديث المنقوله توجهها حماسة . ترى متى تحل اللحظة ؟ متى يزغرد قلبها فرحا ؟ تتحرك اشجانها مع ورود اسماء الشهداء .. لو رزقت من وقته بطل لكان من نفس عمر الشهداء . يغمرها حس عارم انهم ابناها . تفيض برغبة في المساهمة بالاحداث ، الحركة تنبع بقرب اللحظة . زوجها بات يدور في فلك البيت ، ممغنط في انتظار اللحظة ، تتسرّب منه ايماءات واشارات واستفسارات صامتة، تطمئنه بنظرة رقيقة دالة ، لا يهدأ باله ، كيف يهدأ بال من خاص اللجة على جبهتين ؟ الزوجة والاحتلال ؟ الاحتلال سيصير زمنا مندثرا ، الاطفال جعلوه سخرية القدر . هل سيرزق ذكرا ، وهل سيمتد الوقت مع الزمن السيء بحيث يكبر طفله والدنيا على ما هي عليه

تخيل طفلها يقذف حبرا .. فأطربتها الفكرة .. فولجت فيها حتى نهايتها . رأت نفسها تجمع الحجارة لأطفال الحارة ، تواجه البطش ، تتحدى الرصاص ، تتلقى ضربات العصي ، تتكسر العصي ولا تركع وحركة الجنين تنقلها للعالم الملموس .. شيء يكاد يمزق احشائها ... فتصرخ مرعوبة من الآلم .

يا ملطف

كانت زوجة وهيب حديث الحارة والجارات كالعادة يتناقلن آخر الاخبار مع رشفات فهوة الصباح ، لكن اخبار هذا الصباح خلت من حكايات الانتفاضة ، او ربما هي انتفاضة من نوع جديد ، او الوجه الآخر ..

- رب تتم ولادتها بخير .

- جاءها المخاض في عز منع التجول فهربوها من الحقول .

- رب لا تضيع رجاء سنين .

- يقولون ان العساكر انتبهوا ؟

- رب لا تضيع رجاء ولا تخيب املا.

- ولكنهم نجحوا بالتلسلل.

- هاجم الشباب الدورية بالحجارة .. فالهوا .
- رب تتم بخير .
- لا تحرمنا من فلذة كبدها بعد صبر عشرين عاما .
- ستلد ابنا ذكرا ان شاء الله .
- ساوزع الحلوى اذا رزقت بابن .
- سأوزعها حتى لو رزقت ببنت .
- بعد عشرين سنة تلد بنتا ؟
- همرت بها الجارات فنكست عينيها غير متنازلة عن رأيها ، انما لحظة حتى تعبّر همرة الاحتجاج ..
- المهم ان تلد
- ان ينتهي العقر .
- لطفك يا ملطف .
- لولادتها سيكون وقع خاص .
- ولادتها خير لنا جميعا.
- خير لنا وعلينا .
- رب تتم بخير.
- رب لا تضيع تعب أحد .

تجلي العصر

تهيب وهيب من طول الانتظار واكتأب ، غل福特ه افكاره بشياكه حتى لم يعد يشعر بمن حوله ، ضغطته موجة من التخيلات ، اصابه شطط ونـاه وراء المبتدأ وافتقد الخبر . غاص في دوامة الاكتئاب .
 الصـحيح في الرواق الممتد شـديد ، عشرات السـائلـين الـباحثـين عن مـصـائر اـبـنـائـهـم . ايـكون قد تـبـلـدـ ؟
 ايـكون قد فقد حـسـهـ الانـسـانـيـ ؟ اـعـتـراهـ رـفـضـ ... وـاـنـتـفـضـ وـاـقـفـاـ مـزـيـحاـ عـنـهـ هـمـومـهـ . تـأـملـ اـكـتـطـاطـ الروـاقـ
 بـالـنـاسـ والـحـرـكةـ . خطـىـ خطـوـاتـ مـتـرـدـدـةـ ذـهـاـبـاـ وـاـيـاـبـاـ ، تـأـملـ الـبـابـ المـقـفلـ وـاعـتـرـتـهـ طـمـأـنـيـنـةـ . دـفـقـ منـ
 التـفـاؤـلـ مـلـأـ صـدـرـهـ ، اـنـتـشـرـ الفـرـحـ فيـ كـيـانـهـ وـطـربـ لـهـذـهـ الـولـادـةـ المـتـجـلـيـةـ فيـ هـذـاـ الزـمـنـ المـتـفـجـرـ . هـلـ
 كـانـ يـتـمـنـ لـزـوـجـتـهـ وـلـادـةـ فيـ زـمـنـ آـخـرـ ؟ كـيـفـ لـاـ تـتوـغلـ السـعـادـةـ فيـ كـيـانـهـ وـالـخـبـ يـجيـءـ معـ الـانـفـجـارـ ؟ مـدـ
 مـبـارـكـ ، ثـمـرـ بـعـدـ اـنـقـطـاعـ أـمـلـ ، خـيـرـ بـعـدـ جـدـبـ ، ثـورـةـ بـعـدـ صـبـرـ . يـتـذـكـرـ ماـ مـرـ عـلـيـهـ بـمـجـمـلـهـ وـلـيـسـ
 بـتـفـاصـيلـهـ ، يـبـنـيـ لـنـفـسـهـ عـالـمـهـ بـافـقـهـ الـوـاسـعـ المـمـتدـ وـلـيـسـ بـحـدـودـهـ ، بـمـعـنـاهـ وـلـيـسـ بـنـصـهـ . توـسـمـ الخـيـرـ
 فيـ هـذـاـ الصـحـيـحـ ، رـأـيـ تـجـليـ العـصـرـ ، رـأـيـ كـيـنـونـتـهـ وـطـربـ لـشـارـاتـ النـصـرـ يـرـفعـهاـ النـازـفـونـ دـمـاـ وـالـمـتـلـوـونـ
 الـمـاـ ، اـهـتـرـ كـيـانـهـ مـنـ الـاعـمـاـقـ وـأـصـابـهـ الـاـرـتـعاـشـ .. مـدـ منـ الـحـمـاسـ سـرـىـ فيـ دـمـهـ . نـظرـ نحوـ الـبـابـ مـنـتـظـراـ

من جهينة الخبر . سمع صراخها يعلو ، ا تكون الولادة بلا ألم ؟ ا تكون السعادة بلا ثمن ؟ دفق من الدفء
احاطه وهو يرنو لأهل الحارة القادمين رجالا ونساء ، افواجا افواجا ... من آخر الرواق. اراد ان
يتسم ، حبس دموع الفرح ، شدت سمعه بعض صرخات اخرى تعلو من خلف الباب المغلق وأهل الحارة
يقتربون بضجيج ، معهم عشرات الجرحى ممن يعرفهم وممن لا يعرفهم . مدد من الراحة ، مدد من السعادة ،
تغرقه أجمل الأحساس ، تنفجر من عينيه دموع الفرح ، يقف امام الجمع المتتدفق يبكي دون ان يشعر
بالحياء ، يتمنى لو يحمل عن الجرحى بعض الامم، ان ينرف دمه بدل دمهم ، ان تكسر عطامه بدل عطا مهم
، ينظر نحو الباب مستعجلـ السعادة ، لكن جهينة لا تبان ، ينظر نحو العصر المتجلـ بناسه واحداته ،
بدأت الصرخات تخفـ ، يحيط به جمع غفير ، تحيط به أجمل المشاعر ، يعاـنـقـونـهـ بيـقـيـنـ العـارـفـيـنـ وـعـيـنـيـهـ
تنقلان بينـهمـ ، تبتـسـمانـ لـهـمـ ثم تـتـعـلـقـانـ بـالـبـابـ ، حـيـثـ الـخـبـرـ وـالـأـمـلـ ..

الناصرة - 1988